http://jgu.garmian.edu.krd https://doi.org/10.24271/garmian.416

ثنائية الأبيض و الأسود في شعر عنترة بن شداد العبسي

دراسة في المضامين الفكرية

بخشان رحيم رشيد المظفري

كلية العلوم الأنسامية, جامعة رابرين

Zhiar155@gmail.com

الملخص

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تتجاوز الدراسات الوصفية الكثيرة التي تناولت الشعر الجاهلي و شعر عنترة على وجه الخصوص ، حيث يتناول هذا البحث ثنائية الأبيض و الأسود في شعر عنترة و علاقة هذه الثنائية بذات الشاعر ، و قد يتبادر إلى الذهن أن الشاعر لاعتبارات ذاتية كان يمكن أن يتغاضى عن ذكر هذه الثنائية في شعره ، و لكنه على عكس ما يتوقع القارئ فقد اكثر عن ذكرها و الحديث عنها ، و هو بذلك لا يهرب من المشكلة الأساسية التي تواجهه في حياته ، وهي عقدة اللون ، و إنما يحاول أن يتصدى لها و يواجهها للتغلب عليها من خلال طرحها و فق معايير دينية اسطورية و اجتماعية و نفسية و قيم خلقية ، من خلال تفكيك هذه الثنائية و جعل الأسود كما الأبيض ، أمراً مقبولاً على المستويين الشخصي و الاجتماعي .

و هو يحاول من خلال اسلوبه الشعري و حسن استغلاله للأبيض و الأسود ان يعدل الموازين القائمة بين فهمه و فهم مجتمعه للعلاقات الانسانية المتبادلة وفق مبادئ إنسانية ، و ليس و فق مظاهر شكلية يؤمن بها المجتمع و يعطيها شيئاً من القداسة .

الكلمات المفتاحية: ثنائية الأبيض و الأسود ، ،شعر ،عنترة بن شداد العبسي

المقدمة

يمثّل الشعر الذي قيل في مرحلة عصر ما قبل الإسلام المُسمّاة بمرحلة (العصر الجاهلي) مرآة صادقة للحياة العربية في تلك المُدة الزمنية، وديوانا حفظ لنا كثيراً من اللفتات الإنسانية الرائعة أو اللحظات العدوانية المنفلتة من سياق السلوك الإنساني، فاستحالت إلى شحنات عاطفية بين حالتي مد وجزرٍ من القلب تارة ، ومن العقلِ تارة أخرى، فضلا عمّا غنمناهُ من مادّةٍ لغويةٍ غزيرة تفتّقت عنها قرائح الشعراء الكبار، فكانوا بحق حفظة للغة العربية بما أودعوه في شعرهم من مفردات و تراكيب أضحت معياراً فيما بعد للتعبير اللغوي السليم.

إذ يختص البحث بالوقوف عند ظاهرة نفسية اجتماعية في شعر عنترة بن شداد العبسي ، فكان للباحثة أن تقف عند ثنائية ضدية تمظهرت في شعره آخذةً تمدُدها في أكثر من موضوعٍ طرقه الشاعر ، ومن المعلوم ان الدراسة ستتوقف عند نماذج من شعره محللين تلك النماذج بالاستفادة من معطيات المنهج الوصفي التحليلي مقروناً بالجانب النفسي و الاجتماعي و الاسطوري...

سيكون البحث في تمهيد يعرض بشيء من الإيجاز مفهوم الثنائيات ثم يسلط الضوء على دلالة الأبيض و الأسود في الموروث الجاهلي ، وكذلك دراسة ثنائية الابيض و الاسود بين الشكل و الجوهر ، وبروز هذين اللونين في شعر عنترة ، وبعد ذلك ينتقل الى استعراض جملة من الشواهد التي انتظمت في عدد من الصور في موضوعات شعر عنترة بشيء من التحليل و الوقوف على ثنائية الابيض و الاسود في لوحة الحب و الفراق ، و لوحة الفخر و الحماسة ، ومن خلال المعتقد الديني و

الاسطوري .. و من ثم كان للختام مطافٌ أخير نقطف فيه ثمار البحث .. فكانت نتائج تحسب للباحثة أو عليها، فالبحث رهين صاحبه إن اجتهد فيه أو أخطأ، و أخيراً ، فالباحثة سعت بمقدار جهدها فيه، وليس عليها أن يكون موفقا ، إذ ((وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب)) .

التمهيد

يعتمد الفكر بعامة في نشاطه على الثنائيات الضدية ، وحوار الحدود المتقابلة والمتباينة ، وهو مايسمى بالفلسفة الجدلية ، فتجتمع في النفس البشرية ثنائيات ضدية يمكن عدها كامنة في أغوار النفس الانسانية ، فالحياة غريزة واظحة الأثر في حركاتنا و سكناتنا ، والموت غريزة ماثلة أمام عيننا ، والسواد والبياض موجودان جنباً الى جنب في الحياة ، ويمكن القول : إن مظاهر الحياة كلها نتيجة ذلك التجاذب بين قطبي هذه الثنائية .
ويحدث أن يحاول طرف من الثنائية أن يشل حركة الطرف الآخر، ويحدث أن نجد منطقة وسطى بين الطرفين .

إن الحديث عن الثنائيات الضدية يعني حديثًا عن توازي الثنائيات ، فالكون يمثّل وحدة وهذه الوحدة هي في النهاية تعددية ضمن الوحدة ، وقد حاول الفلاسفة أن يفهموا الكون فقسموه إلى ذات(إنسان)وموضوع(كون)، ووضعوا بينهما برزخاً يفصل بين جوهر الأشياء الوجودية ، فنظروا إلى كل حد على أنه طرف منفصل عن الآخر، ونجم عن هذا الفصل بين الأطراف وجود ثنائيات لاهوتية : الخير /الشر، الحق /الباطل، وضدّية :الظلام /النور، واجتماعية :الظلم / المظلوم.

ففي داخل النفس البشرية يلتقي طرفا هذه الثنائية التي انشغل بها الفكر الإنساني كثيراً عبر اختلاف عصوره ، وبدت الحياة صعبة التفسير بمعزل عن فكرة الأضداد والثنائيات ، وبدت قائمة في كثير من جوانبها على أضداد وثنائيات.

تقوم فكرة الثنائية على مرتكز فلسفي يتمثّل بأنّ ثمّة قدرة على الربط بين الظواهر التي يبدو أنَّها منفصلة، فالتضاد رابطة مثل التماثل، أو التناقض ،لأنه يعني نفي النقيض، فوجود النور ينفي وجود الظلام ، لذا يدخل النور والظلام في علاقة تناقض، أما وجود الأبيض فيتضادّ مع الأسود، فالعلاقة بينهما علاقة تضادّ، فالحالتان المتضادتان إذا اجتمعتا معا في المدرَك نفسه كان شعوره بهما أتم و أوضح ، وهذا لا يصدق على الإحساسات والإدراكات والصور العقلية فحسب بل يصدق على جميع حالات الشعور كاللذة والألم والتعب والراحة [1]، فالحالات النفسية المتضادّة يوضّح بعضها بعضاً ، وبضدّها تتميز الأشياء، وقانون التضاد أحد قوانين التداعي والتقابل ، لكن ثمة منطقة وسطى بين السالب والموجب في الفكر الفلسفي تربط بين الطرفين ، ويستطيع الدماغ البشري أنْ يلتقط المنطقة الوسطى بين طرفي الثنائية، إذ ((لا يرضى الدماغ البشري عن الانفصال الناجم عن إقامة مثل هذا التقابل القطبي، فيبحث عن موقع وسط)) [2].

تولد الثنائيات الضدية فضاء مائزاً للنص ، إذ تجتمع جملة علاقات زمانية و مكانية ، وفعلية بأزمنة مختلفة ، فتلتقي هذه العلاقات على أكثر من محور ، تلتقي وتتصادم وتتقاطع وتتوازي ، فتغني النص ، تعدد إمكانيات الدلالة فيه ، فالتضاد الفعلي والاسمي يشكل عالماً من جدل الواقع و الذات صراعها مع الحياة ، ووفرة الثنائيات في النص الأدبي الواحد تضفي عليه مزيداً من الحيوية والحركة ، هذه الانساق المتضادة ذات صلة بالكون الذي تصوره سواء أكان ذلك الأمر بالتضاد أم بالتكامل ، لذا تجتمع فيها الخصائص الجمالية .

يلتقي المتلقي الثنائية ضمن النسق، ذلك لأنه نظام مع أن نظاميته تتجلى في مخاتلته ، وطبيعته المراوغة فتقوم الشعريةعلى الأنساق المضمرة ، وتتأسس هذه الأنساق على مبدأ الضدية على مستوى الوضوع واللغة والصورة [3] ، وهذا مايؤدي إلى زيادة التوتر في المسافة بين ما يظهره النص وما يضمره ، وقد تكون العلاقة بين الثنائيات علاقة نفي سلبي وتضاد مطلق ، وقد تكون علاقة توسط ، أو تناغم وتكامل و إخصاب تكشف دراستها عن التركيب الضدي للعالم ، والجدلية التي تتخلله .

دلالة الأبيض و الأسود في المجتمع الجاهلي

الإحساس باللون عند الشاعر الجاهلي له دلالة نفسية تعكس مواقفه من قضايا خاصة لها علاقتها المباشرة أو غير المباشرة بواقعه الاجتماعي والسياسي، فهو عندما يستخدم لوناً معيناً في شعره، ويكرره بشكل يظهر تميزاً أسلوبياً في عمله الفني، يعكس بذلك علاقات مختلفة ترتبط بمواقف معينة تثير في نفسه هذا الاستخدام اللغوي، وتجعل له خصوصية على مستوى التعبير، وقد تعكس وجهة نظر خاصة بالشاعر، أو رؤية ذاتية يحاول أن يصلها بعالم الحس من خلال اللون الذي يقدم إيحاءات فلسفية، أو مواقف ذاتيه تعبر عن معان خاصه به يتمثلها، ويحاول من خلالها ترسيخ وجهة نظره في قضايا لها علاقة بحياته، والشاعر الجاهلي كلف بالألوان، وأكثر الألوان ورودا هو اللون الأبيض ثم الأسود فالأخضر فالأحمر، ويحب الشاعر الجاهلي مزج الألوان المتناقضة كالأبيض والأسود، والألوان المنسجمة كالأبيض والأصفر[4] ولايعني هذا أنه يحب ذكر الألوان في شعره لغاية تتصل بإيحاءات شكلية تجعله كلفا بهذا اللون أو ذاك، وإنما يسقط على اللون مافي نفسه من معان، تجعله يكرر استخدام لون معين، بشكل يعكس وجود علاقة بين هذا الاستخدام والمدلولات النفسية والاجتماعية، التي تدفع به إلى تغليب لون على آخر، أو تكراره بشكل يلفت النظر.

واللون الأسود في الموروث الجاهلي يرتبط بمعان متعددة ، حيث يرتبط بالظلام وعدم وضوح الرؤيا وهم يخافون من هذا اللون ويعدونه لون المجهول من الجن والغليان ، ونعتوا به كثيراًمن الموصوفات التي بغضوها وكرهوا رؤيتها ، وقد ورد عندهم أن الكلب الأسود والقط الأسود من الصور التي يتشكل بها الجن[5] ، ونعتوا به اللمة والشعر و السحاب ، أما الحيوانات فكان لها نصيب وفير الاستعمال من هذا اللون والوصف به ، فقد نعتت به الخيل والإبل والقطا و الحمار والنعام و العظيم من الحيات[6] .

والأبيض يمثل الجمال والنقاوة والسلام ، وتناول العرب اللون الأبيض في حديثهم عن وجوه القوم المشرقة بعمل الخير ، أوالكرم ، أوالفتيان الذين يعرفون الشجاعة ، ووصفوا به السيوف لنصاعتها ولمعانها ، الثور والدروع ، الحمار الوحشي والأنهار ، والشيب ، ويبدوا أن الشاعر الجاهلي قد أحب هذا اللون فوسم به كثيراً من المحسوسات التي كانت تقع أمام عينه ، والعرب استعملوا اللون الأبيض أكثر من غيره من الألوان ، واستعملوه في نعت النساء [7] .

إن استحضار المفردة اللونية وتوظيفها في مجرى القصيدة الجاهلية إيحاءً أو تصريحاً ظاهرة في الموضوعات الشعرية ، واحتلت حيزاً واسعاً في الشعر الجاهلي ، حتى أضحت لوحاتهم الشعريةالفنية واحة لمحاكاة الطبيعة من جانب ، ثم أضافوا إليها مشاعرهم الخاصة في التقاط الألوان ليعبروا عن معاناتهم وهمومهم بخيال حي خصب و انطلقوا أحياناً إلى آفاق تتعدى حدود الخيال .

وعنترة – على سبيل المثال – كان يعيش صراع مع قبيلته من خلال مأساة اللون، التي جعلت منه شخصا منبوذا في مجتمعه، غير مرغوب فيه عند أقرب الناس إليه، وقد حاول الخروج من واقعه الصعب. أو الدائرة الضيقة من حوله، إلى نوع من التوازن، يعيد إليه احترامه، فجاء حديثه عن اللون وفق أولوية نفسية ، تفرض عليه أن يجعل منه محور حديثه

وجوهر عمله. وكنا نتوقع أن يتجنب الشاعر الحديث عن اللون وبخاصة الأسود، أو أن يتجاهله، حتى لايعيش تحت وطأة عقدة النقص التي يواجهها من خلال السواد الذي يكسوه، ولكنه فعل عكس ذلك فدفع باللون الأسود، ليكون اللون البارز من بين الألوان التي استخدمها في شعره، وهو بذلك يريد أن يواجه المشكلة لا أن يتجاهلها لأنه يعرف - من خلال قدراته الفنية - أنه يستطيع أن يتغلب على المشكلة، التي تعرض لها، وأن ينتصر فيها، وهذا يعكس التحدي الواضح للواقع الاجتماعي، والقيم السائدة، ولا غرابة بعد ذلك أن يلح الشاعر على اللون الأسود، في محاولة منه لإظهار مشكلته، وإثبات قدرته على مواجهتها، والانتصار فيها، فهو ينتقل باللون من نقصه الظاهر في عيون الناس، إلى كماله الباطن في تجلياته المعنوية، ومن كونه مصدر سخرية وازدراء وفق قيم اجتماعية سائدة، إلى مصدر قوة وعطاء، في سلوكه اليومي وممارساته على أرض الواقع (لذلك فإن من عابوا على عنترة سواد لونه، إنما يشعرون بمركب نقص خبيث فقد بهرتهم شجاعته، وهالهم فتاؤه ومضاؤه، وسعة حيلته في الحرب، وفتكه في ميادين الشرف والفخار، فحاولوا أن يشعروه نقصاً وأن يقللوا من أهميته، ولم يعرفوا أنهم بذلك قد زادوه مضية في إدراك المجد، وحفزوه على السير قدما في اكتساب محامد جديدة و مناقب حميدة ..) [8].

واللون الأسود بالنسبة لعنترة مشكلة متأصلة في حياته الخاصة والعامة، يعاني منه كما يعاني غيره، لأنه من (أولاد الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم، فقد كانوا سبة يعير بهم آباؤهم. ومرد ذلك من غير شك إلى ظاهرة اللون، فقد كان العرب يبغضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض، وقد وصفوا كل شيء ممدوح عندهم ماديا أو معنويا بالبياض، وكان مما يمدح به الرجل أو يفتخر به أنه أبيض ..)[9] وكانت المرأة مدح بالبياض وكذلك الرجل، والبياض ليس مجرد لون، وإنما يرتبط في المفهوم العام بنقاء العرض ،إذا قالت العرب فلان أبيض وفلانة بيضاء، فالمعنى نقاء العرض من الدنس والعيوب [10] ، وهذا لا يعني أن مفهوم البياض يتنافى مع حسية المعنى المقصود، فقد ورد في الشعر العربي تشبيه وجه الممدوح بالشمس والقمر، والذهب والدينار، وغير ذلك من المعاني التي تعكس استخدام حسية المعنى البياض في شعرهم. وتتبع الألوان في شعر عنترة لايعني مجرد لون من خلال حاسة البصر، وإنما يتجاوز ذلك إلى إدراك علاقات اجتماعية وإنسانية ، تفرض نفسها على خيال الشاعر من خلال إحساسه الذاتي باللون، وهذا يشكل مستوى أعمق في فهم اللون من مجرد إحساس ظاهري يربط اللون بالعالم الخارجي، مما يعني رفض فكرة أن يحمل اللون مجرد دلالة معجمية مباشرة وثم تصور شائع يقوم على توظيف كلمات اللون (Colour ــــ Words) في مستواها المعجمي، وهو لاشك تصور خاطيء، لأنه يغفل القيم الصوتية والإيقاعية لهذه الكلمات في موقعها من سياقها النصي، فهذه الكلمات تمثل منظومة بصرية، وسمعية، وعاطفية معقدة، وهكذا فإن الدافع الحقيقي لهذا التوظيف لا ينبغي أن يكون مرئياً [11].

وتبدو دراسة ثنائية الأبيض و الأسود في شعر عنترة أمراً معقداً، بسبب ارتباط هذا الموضوع بدلالات نفسية واجتماعية، تعكس علاقات غير محددة في اتجاهين متضادين، أحدهما يتعامل مع اللون وفق ظواهر شكلية نمطية، والآخر يتعامل معه وفق رؤى شعرية، وقيم إنسانية، ومما يزيد الأمر صعوبة ندرة الدراسات التي تناولت طبائع الألوان عند الجاهليين عموماً وعند الشعراء خصوصاً ، فنحن لاندري دراية كاملة ما إذا كان المعنى اللغوي لظواهر الألوان قد تطور عبر المراحل الحضارية التي مر بها المجتمع العربي، أم أنه احتفظ بأصل مواضعته الأولى [12].

وسواء تطور مدلول اللون اللغوي أم لم يتطور، فإن موقف المجتمع الجاهلي منه كان سلبياً، وانعكس ذلك بشكل واضح على علاقة هؤلاء السود بمجتمعهم من ناحية، وعلاقاتهم الأسرية من ناحية أخرى، ومن هنا أطلقوا على هؤلاء السود اسماً خاصاً تمييزاً لهم من سائر أخوانهم الهجناء، فسموهم (الأغربة) تشبيها لهم بذلك الطائر البغيض المشؤم في لونه الأسود،

ونسبوهم في أكثر الحالات إلى أمهاتهم. ويخرج هؤلاء (الأغربة) إلى الحياة وقد وسمتهم الطبيعة بذلك اللون الذي يبغضه مجتمعهم، والذي لايد لهم فيه، ولا خروج لهم منه، فإذا هو يحول منذ البدء دون أن يعترف بهم آباؤهم [13].

وتبدو مهمة عنترة في هذا المجال صعبة، لأنه يريد أن يقاوم المفاهيم السلبية السائدة في مجتمعه عن اللون الأسود، ويحقق من خلال قدراته الفنية والشخصية مفاهيم إيجابية، تتيح له أن يندمج في المجتمع، ويمارس دوره الطبيعي فيه، واللون الأسود إلى جانب رفضه اجتماعياً، لارتباط صاحبه بنسب غير مقبول، يرتبط عند العرب بمظاهر نفسية منفرة، كالحداد ومايصاحبه من حزن وكآبة .

ثنائية الأبيض و الأسود بين الشكل والجوهر:

عند مراجعة ديوان عنترة، يلاحظ الدارس توارد اللونين الأسود والأبيض بشكل يلفت النظر، ومن خلال احصائية بسيطة للألوان الواردة عنده، نجد أن اللون الأسود ورد في أربعة وستين موضعاً، والأبيض في واحد و ستين موضعا .

ويأتي إلحاح الشاعر على ذكر اللونين (الأسود والأبيض) - أمامقترنا أحدهما مع الآخر أو منفصلا عنه - لعلاقة ما - بينهما وبين عقدة التوافق النفسي والاجتماعي التي كان يعيشها الشاعر مع أسرته وقبيلته، وقد حاول الشاعر أن يحمل هذين اللونين - على مستوى ذكره لهما وتساوي ورودها في شعره - دلالة تعكس تساوي الأمر بالنسبة له.

ولما كان السواد بحاجة إلى نقيضه لإظهاره، فقد أورد الشاعر اللون الأبيض معادلا - على مستوى الشكل - له، ولكن اللون الأبيض لم يكن بحاجة إلى الدفاع عنه ، كما هو الحال بالنسبة للون الأسود، لأن البياض يعني الإيجابية في المفهوم الاجتماعي، والاتهام يكون اللون الأسود، من هنا جاء دفاع الشاعر عنه، ومحاولة تقديمه من خلال تجاهل الناحية الشكلية فيه، وتنمية دلالات معنوية مستمدة من حقائق وقرائن يثبتها الواقع. فالمسك الذي هو من أطايب الروائح عند العرب، يقترن لونه بالسواد، ولايمكن مع ذلك أن يوصف بالقبح ، أو أن يواجه بالذم ، وعنترة يشترك مع المسك في هذه الصفة التي تجعل منه إنسانا غير قابل للذم حيث يقول :

لئن أك أسودأفالمسك لوني و مالسواد جلدي من دواء[14]

فالشاعر يضع المسك قرينا مادية لسواده ، ويجعل السواد أمرا شكليا ينسبه إلى جلده بما تعنيه كلمة (جلدي) من قشور خارجية لا صلة لها بداخل الشاعر، وهو أمر وجد الشاعر فيه مخرجا مؤقتاً، ولكنه ليس وحيداً على مستوى عملية الإقناع التي يقوم بها ، والتي تحتاج إلى وسائل عدة ، مما يجعله يكرر المعنى، ويلح عليه مقترنا بمعان أخرى، تضع مفارقات واضحة بين أمور الشكل التي ينظر إليها الناس، والجوهر الذي يحاول الشاعر طرحه من خلال(دبلوماسية) هادئة تطرح الحقائق وتقارن بين الأمور فيقول :

وإن كان جلديُ يُرى أسوداً فَلي في المكارم عزٌ و رُتبَة[15]

فالسواد لا يتنافى مع المكارم والأخلاق، والشاعر يحاول أن يتعمق في فهمه للأمور ويتعامل معها وفق مفهوم إنساني ، فالسواد الذي يلازمه لايمكن الهروب منه، ولكن يمكن تغيير مفهوم الناس عنه، وهو يقدم نفسه على أنه رجل حكمة وعقل، لارجل جدل وعنف، ويحاول من خلال مفاهيمه أن يقنع الناس بوجهة نظره لا أن يفرضها عليهم.

فالإنسان - من وجهة نظره - لايمكن التعامل معه وفق لونه أو شكله، وإنما وفق أفعاله، ومن هنا تبدو المفارقة واضحة بين الشكل والجوهر، وهي مفارقة أكدها الشاعر من خلال حديثه عن اللون وعلاقته بالقيم المعنوية ،وقد ساعده ذلك في أن

يحول الجانب السلبي في السواد إلى جانب إيجابي من خلال مجموعة القيم التي لاتتعارض مع اللون الأسود، وقد جمع الشاعر بينها في شعره، ليؤكد وجودها على مستوى الواقع أيضا، وانتهى من ذلك إلى نتيجة إيجابية تمكنه من الانتساب إلى لونه الأسود دون حرج، لأنه يرى فيه مصدر قوة وشجاعة يفتقدها الآخرون، الذين ينتسبون إلى أصول لاعلاقة لها باللون الأسود.

لئن يعيبوا سَوادي فهو لي نسبٌ يومَ النزال إذا مافاتني النسبُ[16]

فالسواد بالنسبة للشاعر لايشكل مشكلة، وإن كان يعد مشكلة في مجتمعه، وهو يحاول من خلال قوتين يمتلكهما أن يعدل الموازين القائمة بين فهمه، وفهم مجتمعه لفكرة السواد، القوة الأولى : شعره، والثانية : شجاعته، وقد تضافرت القوتان بشكل إيجابي في تحقيق هدفه، فهو من خلال الشعر يقيم الدليل والحجة على صحة مايقول، ويؤكد ذلك من خلال ممارسات على أرض الواقع، يظهر فيها بطلا صاحب خلق ومباديء لايعيبها أحد ، فيقول :

وماعابَ الزمانُ عليَ لوني ولا حـــط السوادُ رفيعَ قــدري

إذا ذكر الفَخارُ بأرضِ قومٍ فضربُ السيفِ في الهيجاءِ فَخري[17]

وهذا التضاد بين مفهوم الشاعر الإيجابي للون الأسود، والمفهوم السلبي السائد عنه ، جعله يجمع اللون الأسود مع ضده الأبيض، ليزيد الفكرة وضوحا وترسيخا في الذهن، فإذا كان البياض يعني الخير والشجاعة وصحة النسب، وفق مفهوم إيجابي، فإن السواد الذي يعيبه الآخرون، هو البياض بعينه، كما يفهمه هو من وجهة نظر مرتبطة بالقيم والأخلاق، وهو بذلك يجرد اللون من محتواه الحسي السلبي إلى أخلاقي إيجابي:

سوادي بياضٌ حين تبدو شَمائلي وفعلي على الأنساب يَزهو ويفخرُ[18]

فالشاعر يتعمق في نظرته إلى اللون، بحيث يخرجه من دائرة المحسوسات إلى دائرة المعقولات، فالسواد في منظوره الفني ليس مجرد لون، وإنما هو قيم وأخلاق، يتحول فيها السواد إلى بياض، أو يمتزج الضدان معا في مفهوم أخلاقي جديد، يتجاوز ظاهر الأشياء إلى جوهرها ، ولا غرابة بعد ذلك إذا كان السواد الذي يعاب به، هو مصدر فخره، لأنه يصبح في منظوره الخاص البياض الذي يعني له القوة والشجاعة :

وإن عابت سوادي فهو فخري لأني فـــارسٌ من نسل حـــامِ[19]

وإذا كان السواد عيبا يعير به الشاعر من أعدائه، فإن هذا السواد يتحول إلى الضد على مستوى الشكل والعمل، ففضائل الشاعر وأفعاله لاتمحو السواد الذي يكسوه، وإنما تزيل المفاهيم السلبية عنه ، حيث يقول :

تُعيرني العِـدا بسوادِ جلدي وبيضُ خصائلي تمحو السوادا[20]

فخصال عنترة وأفعاله الإيجابية، تبعد عنه مايلحق بالسواد من عيوب فلا يجرؤ أحد من الناس أن يعيبه بسواد لونه ، لأنه سيواجه بياض أفعاله :

ومن قال إني أسوَدٌ ليعيبَني أُريه بفعلي أنه أكذبُ الناسِ[21]

فالشاعر يبتعد باللون عن طبيعته المألوفة لدى الناس، إلى اسستخدامات شعرية جديدة ، تربط اللون بدلالات إيجابية في حياته وحياة الناس، مما يعكس قدرته على اختيار لغته، بشكل يتيح له أن يتجاوز ما هو متعارف عليه، إلى أنماط

جديدة من التعبير، تضع اللون الأسود في دائرة الاهتمام الخاص والعام، للوصول إلى مستوى جديد من الفهم ، في إطار واقع اجتماعي جديد ، يحاول الشاعر صياغته ، وهو في كل ذلك يعتمد أسلوب المنطق والحوار الهادئ ، فيبدأ بمقدمات صحيحة لينتهي إلى نتائج صحيحة مقنعة ، فاللون الأبيض في عالم الحس مقدمة الظهور النور، والنور يرتبط بالسواد بداية ونهاية، والنتيجة في ذلك أن السواد الذي هو لون الشاعر يقود إلى فضائل بيض كما يقود السواد في الليل إلى نور الفجر ، حيث يقول :

يَعيبون لوني بالسوادِ جهالةً ولولا سواد الليل ماطلع الفجرُ

وأن كان لوني أسوداً فخصائلي بياضٌ ومن كفَيَ يستنزلُ القطرُ[22]

فالشاعر يحاول من خلال تناقضات الفكرة القائمة بين ظاهر الشيء، وقيمه المعنوية ، أن يركز على الجانب الآخر الذي يتصل بالقيم والمفاهيم، التي يمكن من خلالها الوصول إلى مايريد، وهي دعوة صريحة من الشاعر لترك ماهو ظاهر،والتركيز على الجوهر، مستمدة الدليل على صدق ما يقول من الطبيعة القريبة من الإنسان، فالدر يغطيه ثوب من الصدف يخفي جماله ، ولكنه لا يقلل من قيمته ، تماما كما هو الحال بالنسبة للشاعر الذي يغطيه السواد، ولكنه لا يقلل من القيم المعنوية والخلقية التي يحتفظ بها خلف هذا السواد ، فيقول :

وأن يعيبوا سواداً قد كسيتُ به فالدُرُ يسترهُ ثوبٌ من الصَدفِ[23]

وقد تعزز هذا الأسلوب في محاور كثيرة تحدث فيها الشاعر عن مفهوم جديد اللون الأسود، وقدم له مقدمات منطقية صحيحة لايمكن الجدل فيها، لينتهي إلى النتائج التي يريدها في إطار من المعادلات المنطقية، دون أن يثقل على الشعر، أو ينحرف به إلى أسلوب جدلي عقيم، واستطاع بذلك أن يقدم الحجة، وأن يقيم الدليل من غير تكرار أو إسهاب في الشرح.

وفي كل ماسبق، يعتمد عنترة أسلوب الحوار والمنطق للوصول إلى ما يريد، فهو رجل مبادئ وخلق لا يريد أن يفرض رأيه على الآخرين، وإنما يريد أن يقنعهم بوجهة نظره، وهو يرى أن الفروسية يجب أن تصاحبها قيم وأخلاق تدعم من مكانة صاحبها، وتقربه إلى الناس والذي لاشك فيه أنه كان على خلق عظيم، وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أو خلقية ، ويبدو أن الشاعر قد جمع هذه القيم من خلال معاناته في قومه، فقد قوبل بالاضطهاد والإذلال، مما جعله يشعر بمأساة اللون في مجتمعه، فحاول أن ينتقل به من ظاهرة سلبية، إلى ظاهرة إيجابية تظهر صفات خلقية، وقيمة اجتماعية ، لا توجد عند من هم في غير لونه ، لأن عنترة فيما يظهر قد كان حلو النفس ، رقيق القلب ، قوي العاطفة،جاء ذلك من أنه عز بعد ذلة ، وتحرر بعد رق ، فهو قد تألم في طفولته وصباه ، واحتمل الأذى في شبابه وأي أذى! هذا الذل الذي يداخل النفس، ويختلط بها اختلاطاً، فيصفي عواطفها تصفية ، ويلطف مزاجها تلطيفاً [24].

وكان من الممكن أن يمارس عنترة من خلال شجاعته وفروسيته، ضغوطاً على قومه ليعترفوا بما يريد مع سواد لونه، ولكنه يرفض هذا الأسلوب، ويسمو بنفسه إلى واقع من المثل والأخلاق ، يجعل الناس يعترفون بفضله دون أن يرهبهم ، فهذه الفروسية لم تحول عنترة إلى طاغية ، وإنما جعلته يمارس دوراً مميزاً ، يقيم أسساً للعدالة الاجتماعية التي تساوي بين الناس على أساس أعمالهم ومواقفهم وإنسانيتهم ، وليس من خلال لونهم أو شكلهم، ولابد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت في نفوس أصحابهم ضرباً من التسامي والإحساس بالمروءة الكاملة ، فإذا هم يتغنون دائما بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة [25].

ثنائية الأبيض و الأسود في لوحة الحب والفراق :

إن الحديث عن ثنائية الأبيض والأسود في شعر عنترة يقودنا إلى الحديث عن علاقة اللون من خلال علاقة الشاعر بالمرأة، فقد كانت المرأة بالنسبة له جزءا لا يتجزأ في صراعه مع أسرته وقبيلته، ومثل اللون الأسود بؤرة الصراع بين الشاعر وصاحبته من ناحية ، والشاعر والمجتمع من ناحية أخرى.

وكانت صاحبة عنترة تواجه في علاقتها معه أمرين صعبين: أولهما : نظرة المجتمع إلى السواد في الرجل الذي تحبه ، وهي نظرة استهجان ورفض، وثانيهما : حب الشاعر لها ، ومحاولته إقناعها بقبوله وفق مفهومه الخاص عن السواد ، وهو مفهوم إيجابي مغاير للمفهوم السلبي السائد في مجتمعه ، فقد كان شاعرنا قد أولع بابنة عمه ، ولم يكن حبه لعبلة عابراً جاء مصادفة وشغل قلبه ، وانما جاء عن حاجة في نفسه ، فهو أراد أن يُعترف به كسيد من الأسياد وأن يأخذ حقه الشرعي في النسب إلى والده ، ولهذا فقد اختار ابنة عمه تمشياً مع عادات الأشراف في الجزيرة العربية[26].

اختار لمحبوبته هذه اسم عبلة الذي يوحي في معناه باللون الأبيض ، فالأعبل هو الجبل الأبيض ،والعبلاء هي الصخرة البيضاء ، أو الهضبة البيضاء[27]، ومن هذا جاء اسم عبلة حاملاً معنى البياض ليؤكد لنا بأنه كغيره من السادة البيض لاينقص عنهم شيئاً على الرغم من سواده المقوت ، ويحاول أن يطمئنها إلى أن سواد شكله لا يجر عليها عاراً، لأنه مقرون بما تريد منه ، ولهذا يقول لها بلهجة الواثق من نفسه، ومن أفضليته :

وأن أبصرتِ مثلي فاهجريني ولا يَلحَقكِ عارٌ من سوادي[28]

ولعل عنترة بحاجة إلى أن يقنع صاحبته بالرضا عن سواده، ويكسب رضاها عليه ، وإن لم يكن بحاجة إلى إقناعها بصدق مشاعره ونبل أخلاقه ، فهو يقول :

دَعني أجِدُإلى العَلياءِفي الطَلَبِ وأبلغُ الغاية القصوى من الرُتَبِ

لَعلَ عبلةَ تضحي وهي راضيةً على سَوَادي وتمحُو صُورة الغضبِ[29]

لقد حقق عنترة في هذين البيتين وحدة موضوعية في توضيفه لثنائية الأبيض و الأسود ومزجهما في تشكيل لوني في مجرى أدائه الشعري ، فشكل السواد موضعه مع البياض صورة أخاذة أخرى للتضاد اللوني ، فالحبيبة البيضاء (عبلة) لم تكن راضية حقاًعن سواده ، بينما كان يجد إلى العلياء ليعوض نظرة النقص و يثبت وجوده ويرفع نفسه ، حتى أصبح بعد ذلك فارساً مقاتلاً...مغواراً شجاعاً، ويدافع ويذود عن حياض آل عبس بقوة وبسالة قل نظيرها .

ويجعل الشاعر من حبة السواد في قلبه مكانا لصاحبته، وهو بذلك يجمع بينها وبين مصدر الحب في قلبه، ليمحو الأثر السلبي للسواد في علاقته معها، ويثبت لها من خلال أسلوبه المنطقي، أن السواد الظاهري الذي يرفضه الناس، هو نفسه الذي يأتي منه الحب :

ياعبل أنتِ سوادُ القلبِ فاحتكمي في مهجتي واعدلي ياغايةَ الأمل[30]

وكما تلتقي مع سواد القلب تلتقي مع سواد العين [31] ، وهو بذلك يجمع بين صاحبته والسواد الذي في عينيه وفي قلبه، ومن خلال علاقة إيجابية، توحد بينهم، وتجعل السواد شيئا محببة على خلاف ظاهر الأشياء .

والمعادلة بين سواد العين، وسواد القلب، وصاحبة الشاعرالبيضاء واضحة لإنها تجمع بين متناقضات يجمعها ظاهر مرفوض وهو (السواد) وباطن مقبول وهو (العين - القلب - الحب)، وحاول الشاعر من خلال هذه المعادلة بين المرفوض

والمقبول، أن يرسخ علاقته مع صاحبته، من خلال علاقة توحد، تجمع بين المرأة والعين بما فيها من سواد ورؤية، والقلب ومافيه من سواد وحب .

والشاعر من خلال هذه الرؤية التي تقوم على التحليل والمنطق، يحاول إقناع سامعيه بأنه لايتعامل مع الأبيض والأسود، من خلال نظرة أحادية تفضل لوناً على آخر، دون إعتبارات موضوعية، فإذا كان السواد مقبولا لأنه يقترن بأشياء تجعل منه مصدر فخر، فإن السواد الذي في الغراب، لايمكن تحويله إلى ظاهرة إيجابية، تجعل من الغراب عنترة، كما لا يجعل السواد من عنترة غراباً :

يـاعبل كم يُشجي فؤادي بـالنَوى ويَرُوعني صوتُ الغرابِ الأسودِ[32]

كما أستحضر السواد ممقوتاً في صور شعرية أخرى، منها تصويره لصوت الغراب:

يـاعبلُ كم تَنعَقُ غِربـانُ الفلا قد ملَ قلبي في الدُجى سَمَاعها [33]

تشاءم عنترة كبقية عرب الجزيرة العربية من صوت الغراب لسواده، الذي غالبا يدق جرس الإنذار للفراق والرحيل، وهو يجتمع مع ظلام الليل.

ويمضي في تصويره لليل وظلامه ويختار مشاهد أخرى، بارعة في الأداء، قوية في الصياغة في وصف الليل والظلام والرحيل:

إن كنت أزمعت الفراق فإنما رُمـــــت ركابكُم بليل مظلم

ما راعني إلا حمولةُ أهـــلِها وسطَ الديار تَسَفُ حبَ الخِمخم [34]

يجعل عنترة الرحيل سببا في حلول الليل والظلام، فالرحيل يؤلم المحب .. فهي عزمت على الرحيل وجددت في إمضائه من خلال تحضير الركاب في ليل دامس الظلام، فالقوم اختاروا الرحيل في ليل كئيب، فظلام الليل تستر به القوم، ليرحلوا دون أن يتسنى لعنترة فرصة لوداعهم أو معرفة الجهة التي يقصدونها.

ويذكر عنترة المعاني السلبية المقيتة للسواد في حديثة عن الأطلال في لوحة الطلل من افتتاح معلقته:

ولقد حبست بها طويلا ناقتي أشكو إلى سـفعٍ رواكدَ جُثَـمِ

يا دارَ عبلةَ بـالجِـــواءِ تكلمي وعمي صباحاً دار عبلةَ واسلَمي [35]

في هذين البيتين يتخذ شاعرنا السواد موضعه ليشكل صورة أخاذة في استحضار مفردة السواد فيوظفها في أطلال عبلة الراحلة .. إذ شبه آثار الديار الباقية بعد رحيل أهلها عنها سوداء دليلا على الموت والدمار، فالديار أقفرت ولم يبق فيها سوى آثار المكان الذي كان يستعمل للتخلص من روث الحيوانات، وهو عادة ما يكون ماثلا للسواد.

وهو بذلك يريد التأكيد على أن اللون لا يشكل بذاته ظاهرة سلبية أو إيجابية ، وإنما تأتي سلبيته أو إيجابية من خلال مايقدم للآخرين من منافع أو مضار، فالسواد يجمع بين الخير والشر، كما يجمع البياض أيضا بين الخير والشر، وقد يكون الشاعر متعاطفة - إلى حد ما - مع اللون الأسود لاعتبارات لايمكن تجاهلها، وقد نلتمس العذر له في ذلك ، فهو يواجه مصيره من خلال علاقته بهذا اللون ، وهو لذلك يركز على إيجابياته، ولكنه يفعل ذلك من خلال فلسفة قائمة على الإقناع، فالسواد - كما يراه - رمز الشباب والقوة، والبياض رمز الشيخوخة والعجز، والأمر لا يتعلق بمجرد نظرة شكلية عابرة، وإنما يرتبط بقضايا معنوية، فالرأي يقابل الشباب والشيخوخة في قوتهما وضعفهما، يكون أسود اللون عندما يكون

صاحبه قوية، ويتحول إلى البياض عندما يمسي صاحبه ضعيفة :

شابَ رأسي فصارَ أبيضَ لوناً بعدما كان حالكاً بالسوادِ [36]

وهنا يظهر عنصر التضاد حاداً بين اللونين وعلاقتهما بالشاعر، فالبياض يقابل الشيخوخة التي يضعف فيها الرأي، والسواد يقابل الشباب الذي يقوي فيه الرأي، وهو بذلك يحول (السلبي) في مفهوم الناس إلى مفهوم (إيجابي) وفق حقائق و قرائن لايمكن إنكارها، ويحول (الإيجابي) في مفهوم الناس إلى مفهوم سلبي) وفق القرائن والأحوال ذاتها.

والشاعر في كل ذلك، يقدم نفسه على أنه إنسان جدير بالحب والاحترام، ويحاول أن يمهد الطريق أمام صاحبته للوصول إليه، دون حرج من هذا العلاقة التي تقابل بالرفض والإنكار، وفق قيم اجتماعية سائدة، يحاول الشاعر تغيرها معتمداً أسلوب الحوار والإقناع.

ثنائية الأبيض و الأسود في لوحة الفخر والحماسة :

جاء حديث عنترة عن الأبيض والأسود مقترنة بجوانب مختلفة من حياته، فالسلاح الذي يحمله له علاقة مباشرة في الدفاع عن اللون الأسود، وهو يربط ذلك من خلال ثنائية قائمة بين الألوان من ناحية، وعلاقتها بالأشياء التي تخصه في ساحة المعركة من ناحية أخرى، فإذا كان غيره يعشق البيض من النساء، فإنه يعشق السمر العوالي :

وتطربني سيوفُ الهند حتى أهيـــــمُ إلى مضاربها اشتياقا

وأني أعشـــقُ السمر العوالي وغيـــري يعشقُ البيضَ الرشاقا [37]

ولايتنافي حديثه - هنا - عن حديثه السابق عن المرأة لأن عنترة من شعراء الغزل العذري في العصر الجاهلي، يؤمن بالتوحيد، وهو لذلك لايشغل نفسه بالبيض من النساء، لأن هذا يدفع به إلى اتجاه مغاير للشجاعة التي يتحلى بها، ويريد تأكيدها من خلال علاقته (بالمرأة المفردة) من ناحية، (والسلاح) الذي يحمله من ناحية أخرى.

والشاعر لايعشق السواد في السلاح، وإنما يعشق السلاح ذاته أيا كان لونه،فالبياض في السلاح يغريه كما يغريه السواد فيه :

وبوارق البيض الرقاقِ لوامعٌ في عارضٍ مثل الغَمام المُرعدِ

ونوابلُ السُمرِ الدقاقِ كأنها تحتَ القتام نجومُ ليلٍ أسود [38]

فالرماح لايعيبها السواد، كما لايعيب السيوف بياضها، ورؤية الشاعر تقوم - هنا - على اعتبارات معنوية ، بدأ الشاعر بتطبيقها على نفسه أولاً، ثم امتد بها إلى الأشياء المحيطة به، ولها علاقة مباشرة معه ، كالسلاح الذي يلازمه، ويؤثر على مجمل علاقاته على مستوى الأفراد والجماعة.

و وفق هذه الرؤية التي اعتمدها الشاعر، نجد التضاد الحاد بين اللونين الأبيض والأسود، يتحول إلى نوع من التقارب والالتقاء في سلاح الشاعر الذي يجمع بين البياض في السيف، والسواد في الرمح، وقد ركز الشاعر على البياض في معرض حديثه عن السيوف، لإظهار قيمة هذا اللون من خلال الدور الذي يؤديه ، أو المعنى الذي يحمله.

فالبياض الذي هو نقيض السواد في شكل الشاعر، يتضافر مع سواد رمحه، ليحقق ازدواجية قائمة بين الشيء الذي يفتقده (البياض) والشيء الذي يمتلكه وهو (السواد)، وصولا إلى عنصر الشجاعة الذي يتميز به عن غيره. وقد جاء هذا

التميز من خلال اجتماع الضدين (السواد والبياض) وهو بذلك يؤكدحقيقة توحد المتناقضات في علاقة إيجابية فاعلة، يتمثلها الشاعر في منظور فني أوسع وأعمق، يجمع بين السواد والبياض في عنصر إيجابي واحد وهو (السلاح) الذي يحمله، ويدافع به عن القبيلة التي تريد أن تفصل بين اللونين، وتجعل لأحدهما فضلا على الآخر.

ولا غرابة بعد ذلك أن يشد الشاعر نسبة إلى سلاحه الأسود، بما يحمل هذا الانتساب من دلالات معنوية، تعزز السواد القائم في شكله:

ولسمر القنا إلى انتساب وجوادي إذا دعاني أجيب (39)

ويجمع بين السيف والرمح، في تعزيز مصدر قوته، التي بها يهزم الأعداء:

كم جحفل مثل الضباب هزمته بمهند ماض ورمح أسمر (40)

و مادامت البيض من السيوف ، والسمر من الرماح تلتقي في منظور الشاعر الفني، حول قيمتها الاجتماعية، ووظيفتها في المعركة، فإن الفارق بين اللونين يتلاشى، والتناقض الشكلي القائم بينهما يختفي، فالسواد لايختلف عن البياض في تحقيق غايات الشاعر، والوصول إلى مايريد، وكذلك تحقيق غايات القبيلة التي ينتمي إليها، فلا أفضلية للون على آخر، مادام الأمر بالنسبة له ولقبيلته، يأتي بنتيجة واحدة، وهو لذلك يكثر من الجمع بين هذين اللونين بخاصة في حديثه عن السلاح الذي يحقق هذا الغرض، ويمكن ملاحظة ذلك في كثير من أبيات شعره:

بأسمر من رماح الخط لدن وأبيض صارم ذكر يمان(41)

ويجاور بين اللفظين (بيض وسمر) لتأكيد العلاقة بينهما على مستوى الشكل والمضمون، فيقول :

بيض وسمر تحمي مضاربها أساد غاب بالبيض والسمر(42)

ويجمع بين هذين اللونين في مواقف أخرى من المعركة، ليظهر مدى إيجابيتهما، فالسواد يأتي عنصراً إيجابياً، يؤازره في كثير من المواقف والأحوال التي تواجهه:

ياعبل كم من جحفل فرقته والجو أسود والجبال تميد(43)

وسواد الليل يجد فيه الشاعر وقتا مناسبة لغاراته التي يحقق فيها النصر على أعدائه :

ولقد هممت بغارة في ليلة سوداء حالكة كلون الأدلم(44)

فالسواد يتمثل أمامه عنصرة إيجابياً في غبار المعركة ، وظلام الليل ، ويراه كذلك في وجوه الخيل التي تشاركه أهوال القتال ، وتخوض معه غمار الحرب :

والخيلُ سودُ الوجوه كالحةٌ تخوض بحر الهلاك والخطر(45)

والشاعر بذلك يسقط مافي نفسه على جو المعركة، ويجعل السواد عنصراً إيجابية يوظفه لصالحه، كأنه بذلك يريد أن يحطم القيود التي يتعامل بها الناس مع اللون الأسود، ويسقط نظرية المفهوم النفسي للألوان، وفق اعتبارات اجتماعية سائدة ، لا علاقة لها بالحقائق التي يثبتها الشاعر، ويريد من خلال أسلوبه المنطقي إقناع الناس بها.

فالسواد ظاهرة إيجابية تؤازر الشاعر من خلال عناصر لها مباشرة به كالليل والمعركة والخيل، والرمح ... وهي تتضافر

مع قيمة الإنسانية الداخلية التي يتحلى بها، وتجعل منه إنساناً مميزاً في قومه، وعلاقاته بالأشياء المحيطة به في معرض فخره ، وتنعكس - بالتالي - بشكل إيجابي على مجمل علاقاته الاجتماعية .

ثنائية الأبيض والأسود من خلال المعتقد الديني والاسطوري :

و لما كان المعتقد الديني والأسطورة هما المعين الذي يرد إليه الشعر الجاهلي ، ويصدر عنه _ باعتبارهما المؤثر الأول في عقلية الشاعر الجاهلي ولاوعية الجمعي _ لذا فإننا سوف نعالج البعد الديني والأسطوري المتعلقة بثنائة الأبيض والأسود ، متتبعة رموزهما اللونية التي تعود في جذورها إلى الدين او الأسطورة ، مع توضيح دلالتهما وصلتهما بهذا المعتقد إذ إن العرب في فترة ما كانوا يخلطون بين الملوك والآلهة ، فيجعلون من ملوكهم وأسيادهم أرباباً يعبدونهم ويدينون لهم بالولاء ، لاسيما عند إطلاق العبارة الشهيرة " دم الملوك يشفي من داء الكلب " . وجميع هذه الرموز المقدسة تمثل الآلهة الإيجابية في الأرض ، إذ يبدو الرجل أو المرأة بالوجه الأبيض لهذا الإله فيزرع الحب ويهب الخير والعطاء ، أو يمنح الحياة والبهجة للأتباع والمحيطين .

أما عنترة فرسم لنفسه صورة فريدة من صور الآلهة ولكنه يشبه نفسه بالآلهة السلبية ، آلهة الموت والدمار ، فإذا قارنا بين عنترة وبين تلك الآلهة السلبية نجده يمثل صورة بشرية لها بجميع أبعادها .

و أول ما يطالعنا في قصة عنترة حبه لعبلة ، واختلاف اللون بينهما مما يحول دون الوصول إليها والزواج بها ، ولم يرفض ذوو عبلة وحدهم سواد عنترة بل نجد عبلة نفسها ترفض هذا السواد ، وتتردد أمامه وفي ذلك يقول عنترة :

دعني أجد إلى العلياء في الطلب وأبلغ الغاية القصوى من الرتب

لعل عبلة تضحي وهي راضـــية على سوادي وتمحو صورة الغضب [46]

وهو يصرح في هذين البيتين أن عبلة لم تكن راضية عن سواده ، ولذا فقد كان يجد إلى العلياء ليعوض نظرة النقص ، وهذا الأمر يذكرنا بقصة (أفروديت) و (هيفاستون) فقد كان (هيفاستون) اسود اللون كالفحم المحروق ، وأحب (افروديت) إلهة الجمال عند اليونان ، وخطبت له ، ولكنها كانت تشعر بالخزي بسبب هذه الخطوبة من الرجل ذي الوجه الأسود القاتم كلون الفحم المحروق [47].

ويغدو عنترة بعد ذلك مقاتلا ، مدافعا عن آل عبس ، فلا يخرج من غارة إلا وقد استعد الأخرى ، ولذا فهو أبدا مستعد للقتال لابس درعه الذي طبع على جلده لطول احتكاكه به ، وفي ذلك يقول :

ولو أني كشفت الدرع عني رأيت وراءه رسما محيلا[48]

وهو بهذه الصورة يبدو بصورة (هادز) اله الأموات والعالم السفلي ، الذي يبدو بوجهه الأسود ويلبس درعه السوداء أبدا [49]، فلا يختلف في ذلك عن عنترة إلا في الاسم ومجريات الأسطورة.

ثم نجد حصان عنترة الأدهم الذي يخوض جل معاركه عليه ، وفيه يقول:

تمسي وتصبح فوق ظهر حشية وأبيت فوق سراة أدهم مُلجم[50]

فهو ملازم لهذا الحصان الأدهم لكثرة المعارك التي خاضها عليه ، فهو رفيقه الذي لا يفارقه أبدا ، ويقول في موضع آخر ذاكرا مشاركة حصانه في المعارك التي يخوضها :

خضت الغبار ومهري أدهم حالك فعاد مختضبا بالدم والجيف [51]

وملازمته حصانه الأسود في الحرب تذكرنا بالإله (شو بن رع) في مصر ، الذي يصور "على هيئة محارب شاب يقتل وهو في مركبه الأسود "[52]، فالمركب الأسود من متعلقات الإله المحارب الذي يتقمص عنترة شخصيته في شعره دون أن يصرح بذلك .

وعنترة يكثر في شعره ذكر بريق السيوف ولمعانها ، وذلك للدلالة على بطشه وحدة هذا السيف الذي ما ينفك عاليا هابطا وسط الغبار الكثيف مما يجعل من لمعانه المتواصل هذا ما يشبه البرق الذي يلمع خلال السحب السوداء حتى يوشك أن يذهب بالأبصار ، ومن ذلك قوله :

يا بني عامر ستلقون برقا من حسامي يجري الدماء سجاما[53]

وهو بذلك يذكرنا بالإله (زيوس) الأولمبي الذي كان إذا غضب من شخص أو رغب في ، قتله ارسل عليه صاعقة من بريق أشرطة القصدير التي يحملها نسره الذهبيه، فكان البرق الذي يصدر عن سيف عنترة هو تلك الصواعق التي تستخدم للقتل ، وقد لاحظنا في البيت السابق دور البرق في إجراء الدماء ومن ثم قتل هؤلاء الفرسان .

ثم هو يصرح بعد ذلك بأنه ملك الموت الذي على الناس أن يطيعوه ، وذلك بسبب جبروته، وقوته ، وباسه في القتال ، إلى جانب لونه الأسود المخيف ، وما يضاف إلى سواده من بعده عن الغسل ، وإهمال شعره حتى يبرز بصورة منفرة مرعبة ، وفي ذلك يقول :

. إني لأعجب كيف ينظر صورتي يوم القتال مبارز ويعيش[54]

فهو يعترف أن صورته منفرة مرعبة يرهبها الأبطال فيصرعون قبل أن يصرعهم بسيفه ، بل إن الموت نفسه يخاف منه ، ويشعر بالرعب إزاءه ، وفي ذلك يقول:

ولو أن للموت شخصا يرى لروعتـــه وأكثرت رعبه[55]

ويقول في موضع آخر ، مذكرا بملك الموت الذي يصاحبه ويقيم في حد سيفه :

سائلي يا عبيل علي خبيرا وشجاعا قد شيبته الحروب

فسينبيك أن في حد سيفي ملك الموت حاضر لا يغيب [56]

ويقول رابطا بين الموت وبين لونه الأسود :

وأنا المنية وابن كل منية وسواد جلدي ثوبها ورداها[57]

ولذا فهو يعتقد أنه يستحق التمجيد و الولاء ، وفي ذلك يقول :

يا عبل لو أن المنية صورت لغدا إلي سجودها وركوعها[58]

ويشبه نفسه في موقع آخر بكعبة العرب لبطولته وشجاعته ، فيقول :

ولو صلت العُربُ يوم الوغى لأبطالها كنت للعرب كعبة[59]

فعنترة إذن واحد من هذه الآلهة ، ولكنه إله يمثل قوى الدمار والموت ، يرعب الناس وينفرون منه ، لأنه محارب لا يكف

عن القتل وشرب الدماء ، وهو الذي يخطف الأنفس دون أن يمهل أصحابها ، وهو إلى جانب ذلك الإله الأسود الذي يأتي من أم مجهولة النسب خلاف أبناء القبيلة مما جعل مرتبته تقل عنهم ، وتنفر النساء من وصله .

إن هذه الدلالات الأسطورية الدينية للأبيض والأسود في شعر عنترة تسربت اليه دون تخطيط مسبق منه وإنما بتأثير المعتقدات التي آمن بها ، وسلم بصحتها .

خاتمة البحث

فبعد متابعة بسيطة لثنائية الأبيض و الأسود في شعر عنترة، نجد أن اللون الأسود أكثر الألوان ذكرا في شعره، والسبب في ذلك يعود إلى خصوصية هذا اللون بالنسبة لعنترة، وعلاقته النفسية والاجتماعية و الدينية و الاسطورية به، وقد حاول الشاعر من خلال التركيز على هذا اللون، ومواجهة المشكلة الاجتماعية التي يتعرض لها، وهي مواجهة تعني أن حل المشكلة القائمة، لايمكن تجاهلها، وإنما بعرضها للتغلب عليها.

ـ يأتي إلحاح الشاعر على ذكر اللونين (الأسود والأبيض) أمامقترنا أحدهما مع الآخر أو منفصلا عنه لعلاقة ما بينهما وبين عقدة التوافق النفسي والاجتماعي التي كان يعيشها الشاعر مع أسرته وقبيلته، وقد حاول الشاعر أن يحمل هذين اللونين على مستوى ذكره لهما وتساوي ورودها في شعره دلالة تعكس تساوي الأمر بالنسبة له.

ـ يعتمد عنترة أسلوب الحوار والمنطق للوصول إلى ما يريد، فهو رجل مبادئ وخلق لا يريد أن يفرض رأيه على الآخرين، وإنما يريد أن يقنعهم بوجهة نظره، ويبدو أن الشاعر قد جمع هذه القيم من خلال معاناته في قومه، فقد قوبل بالاضطهاد والإذلال، مما جعله يشعر بمأساة اللون في مجتمعه، فحاول أن ينتقل به من ظاهرة سلبية، إلى ظاهرة إيجابية تظهر صفات خلقية، وقيمة اجتماعية ، لا توجد عند من هم في غير لونه.

ـ ويؤكد الشاعر على أن اللون لا يشكل بذاته ظاهرة سلبية أو إيجابية ، وإنما تأتي سلبيته أو إيجابية من خلال مايقدم للآخرين من منافع أو مضار، فالسواد يجمع بين الخير والشر، كما يجمع البياض أيضا بين الخير والشر، وقد يكون الشاعر متعاطفة - إلى حد ما - مع اللون الأسود لاعتبارات لايمكن تجاهلها، وقد نلتمس العذر له ي ذلك ، فهو يواجه مصيره من خلال علاقته بهذا اللون ،

ـ و يقدم الشاعر نفسه على أنه إنسان جدير بالحب والاحترام، ويحاول أن يمهد الطريق أمام صاحبته للوصول إليه، دون حرج من هذا العلاقة التي تقابل بالرفض والإنكار، وفق قيم اجتماعية سائدة، يحاول الشاعر تغيرها معتمداً أسلوب الحوار والإقناع.

ـ و يسقط الشاعر مافي نفسه على جو المعركة، ويجعل السواد عنصراً إيجابية يوظفه لصالحه، كأنه بذلك يريد أن يحطم القيود التي يتعامل بها الناس مع اللون الأسود، ويسقط نظرية المفهوم النفسي للألوان، وفق اعتبارات اجتماعية سائدة ، لا علاقة لها بالحقائق التي يثبتها الشاعر، ويريد من خلال أسلوبه المنطقي إقناع الناس بها.

ـ وهو يرى أن السواد ظاهرة إيجابية تؤازر الشاعر من خلال عناصر لها مباشرة به كالليل والمعركة والخيل، والرمح ... وهي تتضافر مع قيمه الإنسانية الداخلية التي يتحلى بها، وتجعل منه إنساناً مميزاً في قومه، وعلاقاته بالأشياء المحيطة به في معرض فخره ، وتنعكس - بالتالي - بشكل إيجابي على مجمل علاقاته الاجتماعية .

ـ لقد رسم عنترةلنفسه صورة فريدة من صور الآلهة ولكنه يشبه نفسه بالآلهة السلبية ، آلهة الموت والدمار ، ويمثل صورة

بشرية لها بجميع أبعادها و تسربت إليه هذه الدلالات الأسطورية الدينية للأبيض والأسود في شعره دون تخطيط مسبق منه وإنما بتأثير المعتقدات التي آمن بها ، وسلم بصحتها .

لقد استطاع عنترة أن يثبت ذاته في مجتمعه على المستوى الشخصي والاجتماعي و الدينى والاسطوري ، فهو صاحب قيم ومبادىء وأخلاق، تفرض احترامه على الناس، وتجعله إنسانة مؤهلا لأن يعيش في مجتمعه، كما يعيش الآخرون .

الهوامش

1- ينظر: الثنائية الضدية – دراسات في الشعر العربي القديم، د. سمر الديوب ،الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2009 : 4-5.

2- لود ليفي شتراوس – دراسة فكرية : ادموندليش ، ترجمة :د .ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، د.ت. : 24.

3- ينظر: الثنائية الضدية – دراسات في الشعر العربي القديم، د. سمر الديوب : 7.

4- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي : نصرت عبدالرحمن ، مكتبة الأقصى، عمان ،١٩٧٩م، ص١٨٧ .

5- ينظر: موسوعة اساطير العرب: محمد عجينة، ط1 ،بيروت – دار الفارابي 1984 :ج2 :25-29، 200 .

6- ينظر: دراسات في الشعر الجاهلي : د. نوري حمودي القيسي ، بغداد 1974 : 165-166 .

7- ينظر: جماليات اللون في القصيدة العربية: محمد حافظ دياب ، مجلة الفصول، شتاء ، ج5،ع2، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة 1985 : 42 .

8- فارس بني عبس : حسن عبدالله القرشي: ط دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية ط دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية ،١٩٩٩م. ص 64.

9- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي :يوسف خليف : ط مكتبة غريب – مصر، ص 104.

10- ينظر : لسان العرب : ابن منظور ،ابن منظور ,دار صادر بيروت 1955م ,دط(لون) : مادة بيض.

11- جماليات اللون في القصيدة العربية : محمد حافظ دياب: جلة الفصول ,مج5 ،ع2 1980 ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ص 44.

12- شاعرية الألوان عند امرئ القيس: محمد عبدالمطلب: مجلة الفصول ، مج5 ، ع2 : 57.

13- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي :يوسف خليف ، : 105.

14- ينظر :اللون وابعاده في الشعر الجاهلي : شعراء المعلقات أنموذجاً ،امل محمود عبدالقادر ابو عون ، رسالة ماجستير ، كلية الدراسات العليا ،جامعة نجاح الوطنية ، نابلس ، فلسطين 2003 : 57 .

15- ينظر: لسان العرب : ابن منظور : مادة (عبل) .

16- شرح ديوان عنترة ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 1985م: 45 .

17- ديوانه : 21 .

18- ديوانه : 109 .

19- ينظر : المصدر نفسه : 109 .

20- ديوانه : 55 .

21- ديوانه : 75 .

22- ديوانه : ص72 .

23- ديوانه : ص88 .

24- ينظر: حديثالأربعاء : طه حسين ، ط دار المعارف بمصر ، ط 12 ، ص150 .
25- العصر الجاهلي: شوقي ضيف ، ط دار المعارف ، مصر ، ط 10، ص 371.
26- ينظر اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي / شعراء المعلقات أنموذجا، ص 57.
27- ينظر لسان العرب ,أبن منظور(عبل).
28- ديوانه : 45 .
29- ديوانه : 21 .
30- ديوانه : 109 .
31- ينظر : ديوانه ، 109 .
32- ديوانه : 55 .
33- ديوانه : 81 .
34- ديوانه : 118 – 119 .
35- ديوانه : 117 .
36- ديوانه : 54 .
37- ديوانه : 94 .
38- ديوانه : 57.
39- ديوانه : 20.
40- ديوانه : 70.
41- ديوانه : 146.
42- ديوانه : 22.
43- ديوانه : 53.
44- ديوانه : 126.
45- ديوانه : 73.
46- ديوانه : 21.
47- Robert Graves: Myths of Ancient Greece. London: Joan Kidde - Monoroe Cassel, P:20.
48- ديوانه : 104 .
49- Robert Graves: Myths of Ancient Greece. P:30 .
50- ديوانه : 120.
51- ديوانه : 88.
52- ديانة مصر القديمة : ادولف ارمان: ترجمة د.عبدالمنعم أبوبكر و د. محمد أنور شكري ،ط1 ، القاهره : مكتبة المدبولي1995 : 414 .
53- ديوانه : 137.
54- ديوانه : 77.
55- ديوانه : 10.
56- ديوانه : 20.
57- ديوانه : 155.

58- ديوانه : 83.
59- ديوانه : 10.

Bilateral White and black in the poetry of Antar bin Shaddad al-Absi

Bakhshan Rahim Rasheed Al - Muthafari
University of Raparin

Abstract

The importance of this research is that it goes beyond the many descriptive studies that dealt with pre-Islamic poetry and poetry in particular. This research deals with the dualism of white and black in the poetry of Antar and the relationship of this duality with the same poet. It may come to mind that the poet To ignore the mention of this duality in his poetry, but contrary to what the reader expected more than mentioned and talk about, and so he does not escape from the basic problem facing him in his life, a color node, but tries to address it and face to overcome Through its introduction and conform to religious, mythological and social standards and the same And moral values, by deconstructing this dualism and making black as well as white acceptable on both the personal and social levels.

Through his poetic style and his good use of white and black, he attempts to modify the balance between his understanding and his society understands of human relations in accordance with humanitarian principles and not just formal forms in which society believes and gives them something of holiness.